خدعة مخطوطات البحر الميت

ثائر صالح

عرض كتاب:

The Dead Sea Scrolls Deception,

Michael Baignet and Richard Leigh, Jonathan Cape Ltd. 1991

صدر هذا الكتاب قبل أعوام ثلاثة في الولايات المتحدة الأمريكية وأثار اهتماماً واسعاً. وقد ترُجم إلى عدةّ لغات منها الألمانية والمجرية (وهي النسخة التي حصلت عليها)، وهو أقرب إلى رواية بوليسية أو تحقيق صحفي يتناول موضوع إكتشاف المخطوطات ومصيرها، والتنقيبات التي أجراها العلماء في منطقة البحر الميت ودراسة وترجمة هذه المخطوطات من اللغات الأصلية والفرضيات التي وضعها المتخصصون حول الموضوع لتكوين صورة عن القمرانيين (معتقداتهم، علاقتهم باليهودية والمسيحية، دورهم في الإنتفاضات اليهودية ضد الحكم الروماني إلخ).

ويتمحور الكتاب حول دور اللجنة الدولية التي احتكرت دراسة وترجمة المخطوطات منذ البداية لحد الآن، ويحاول المؤلفان إثبات خطأ فرضية اللجنة الدولية بأنه ليس للمخطوطات أية علاقة مباشرة بالمسيحية، وكذلك خطل تصنيف الجماعة القمرانية ضمن الطائفة الأسينية، ويذهبان أبعد من ذلك حين يتهمان اللجنة الدولية بالخداع وتحريف الحقائق والتسويف في ترجمة ونشر المخطوطات، ووضع البحث العلمي للجنة في خدمة المجمع اللاهوتي ولجنة الكتاب المقدس البابوية وتوجيههما. ويفند المؤلفان الفرضية «الرسمية» للجنة الدولية حول الموضوع، ويبينان بأن المخطوطات كتبت في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي وبعده، وإن الجماعة القمرانية ليست مجموعة منعزلة أو أسينية بالشكل الذي صوره فلافيوس وبلينيوس وفيلون وغيرهم من المؤرخين القدماء، بل هي جزء من الحركة «القومية» اليهودية التي إنتفضت ضد حكم الرومان «الوثني»، وهي بذلك أقرب إلى الزيلوتيين المقاتلين منها إلى الأسينيين المسالمين، والمثير في الأمر هو ما يتحدث عنه المؤلفان بصدد المساواة بين القمرانيين والكنيسة المسيحية البدائية ويسوع المسيح والقديس

يعقوب (أخو يسوع)، ومن جانب آخر يسلّطان الضوء على دور بولص الرسول في إرسائه تعاليم المسيحية و«إنشقاقه» وإنفصاله عن الوسط اليهودي المتصلب، وسط القمرانيين والكنيسة المسيحية البدائية.

إشكالية المخطوطات وتأريخ كتابتها:

يصر أتباع التفسير الرسمي (اللجنة الدولية) على أن المخطوطات كتبت في القرنين الثاني والأول ق.م، وتمّ إخفاؤها في 66 م إبان الإنتفاضة اليهودية ضد الرومان، وهي بذلك تروي أحداث عهد المكابيين وإحتلال بومبيوس لفلسطين عام 63 ق.م، وبذلك ليست لهذه النصوص أية علاقة مباشرة بالأناجيل والعهد الجديد، ومن أبرز ممثلي هذا الإتجاه دو فو R. de Vaux رئيس اللجنة الدولية، وكروس F. Cross وميليك J.T. Milik وغيرهم، في حين يؤكد باحثون آخرون (ممن حرموا من الوصول إلى النصوص الأصلية) بأن المخطوطات تروي أحداث القرنين الأول والثاني الميلاديين وبالتالي لها علاقة مباشرة بالأحداث الواردة في الأناجيل والعهد الجديد. ومن أبرز ممثلي هذا الإتجاه روبرت أيزنمان R. Eisenman وسسل روث C. Roth.

ما هو سبب هذا التناقض؟ من حيث محتواها تقسم المخطوطات إلى قسمين، النصوص التوراتية والتفاسير، والنصوص التي تصف الحياة الداخلية للجماعة القمرانية. ويأتي القسم الثاني في الأولوية من ناحية الأهمية، إذ تشرح مجموعة من المخطوطات تفاصيل تنظيم الجماعة ومعتقداتها وعلاقتها بالسلطة والطوائف الأخرى. عند الإطلاع على نصوص مثل لفافة الحرب أو القوانين الداخلية تتبلور أمامنا صورة معلّم الصدق (وهو مؤسس أو زعيم القمرانيين) الذي قتله الكاهن الشرير، ونجد نصوصاً أخرى تتحدث عن الكاهن الكذاب، وكذلك نلمس بوضوح مدى إيمان القمرانيين بقدوم المسيح (وهو معلم الصدق ذاته الذي قتله الكاهن الشرير)، ولكن كيف فسرت اللجنة الدولية هذه الأمور؟

جرى التأكيد على أن الكاهن الشرير والكاهن الكذاب هما نفس الشخص، وجرت محاولات لتشخيص هذا الكاهن الأعلى، وبما أن المخطوطات تصف أحداثاً وقعت قبل الميلاد، فلن يكون لها علاقة بالسيد المسيح قطعاً. غير أن أيزنمان لا يتفق مع هذا الرأي، فهو يطرح قصته على النحو التالي: معلم الصدق هو يعقوب ذاته (ويسميه يوزيبيوس يعقوب الصادق في مؤلفه «تاريخ الكنيسة») قائد الطائفة اليهودية القمرانية التي وقفت بوجه الصدوقيين الذين تحالفوا مع الحكم الروماني، لذا يقتله هؤلاء الصدوقيون بزعامة الكاهن حنانيا (الذي نصبه الحاكمون كاهناً) وهو الذي أسماه القمرانيون الكاهن الشرير. وبعد فترة ينتقم اليهود من الكاهن حنانيا عند اندلاع الإنتفاضة ضد الرومان عام 66 م. أما الكاهن الكذاب (بنظر القمرانيين بالطبع) فهو بولص الرسول الذي

انشق عن تعاليم الطائفة التي اتهمته بالتحريف والكفر بالناموس الموسوي، في حين نفى بولص ذلك. ونلمس في أعمال الرسل ما يشير إلى مثل هذه التهمة، فقد دفع بولص عن نفسه تهمة الكذب في رسالته الأولى إلى تيموثاوس 2:7 «الحق أقول في المسيح ولا أكذب» ورسالته الثانية إلى أهل كورنثوس 11:31 «الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي هو مبارك إلى الأبد يعلم أني لست أكذب». وبذلك يكون بولص الرسول الذي لم يلتق أبداً بيسوع المسيح هو الذي أرسى تعاليم الدين المسيحي الذي نعرفه اليوم.

النقطة المثيرة الثانية التي يطرحها الكتاب إستناداً إلى أبحاث أيزنمان هي حل مشكلة تحديد موقع دمشق الواردة في مخطوطات قمران (المخطوطة الدمشقية مثلاً). إذ يستنتج بأن الموقع المعروف اليوم بقمران كان يسمى دمشق يومذاك، لا بل حتى دمشق التي قصدها بولص الرسول (التي وردت في الإصحاح التاسع من أعمال الرسل في الحديث عن تعقب شاؤول، بولص لـ «المسيحيين» وإصابته بالعمى الوقتي وظهور الرؤيا) هي قمران نفسها. زيادة على ذلك فإن بولص قضى ثلاث سنوات في «دمشق» بعد إعتناقه المسيحية حسبما ورد في رسالته إلى أهل غلاطيا «.. ثم رجعت إلى دمشق. ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرف ببطرس..» (الإصحاح الأول 17 ـ 18)، وهي نفس فترة «الإختبار» لدى القمرانيين ومدتها ثلاث سنوات يقضيها القادمون الجدد الراغبون في الإنضمام إلى الجماعة. وبالمناسبة فإن تعبير «صعدت إلى أورشليم» مطابق للواقع، فالقدس تعلو قمران بألف متر ويزيد، غير أن حقيقة بناء القدس فوق تل مرتفعة تعني بالضرورة «صعود» كل من يرغب في الذهاب إليها. ويناقش أيزنمان ذلك بأن دمشق السورية كانت تابعة إلى وحدة إدارية رومانية أخرى، فبأي حق يصدر الكاهن اليهودي الأعلى أمراً بإعتقال أشخاص مواطنين في دولة أخرى، وهو الشيء الذي منعته السلطات الرومانية على الدوام؟ إذن لا بد لدمشق الواردة في أعمال الرسل ومخطوطات قمران أن تكون تابعة إلى إقليم فلسطين إدارياً. وهذا التفسير يعطي حلولاً لعدد من المشاكل التي يواجهها الباحثون، دون أن نسقط الإحتمال الآخر وهو رمزية تعبير دمشق.

ويعالج الكتاب إشكالية القمرانيين ـ الأسينيين ـ المسيحيين الأوائل والعلاقة بينهم، ويخلص إلى أن الصورة الكلاسيكية المتكونة عن الأسينيين ليست دقيقة، إذ كانت أحكام فلافيوس مسيطرة لفترة ألفي عام. وقد أشار بعض المفكرين إلى العلاقة المحتملة بين المسيحية والأسينية، ومنهم أرنست رينان الذي ذكر في كتابه الشهير «حياة يسوع» (1863) بأن المسيحية هي أسينية ناجحة. غير أن تشخيص قمران كونها مركزاً أسينياً يثير بعض الإشكالات، منها تأريخية ومنها أثرية. مثلاً وجدت قبور تحوي هياكل عظمية لنساء وأطفال في مقبرة قمران، ومعروف أن الكتّاب الكلاسيكيين تحدثوا عن عزوبية الأسينيين. كذلك لو كانت قمران مركزاً أسينياً لذكر هؤلاء الكتّاب شيئاً عن

التقويم القمراني الشمسي الخاص الذي يختلف عن التقويم القمري المستعمل. قد ذكر فلافيوس أن للأسينيين علاقة طيبة بهيرودس في حين كان القمرانيون يعادون الحكام الأجانب والرومان. ومن الجدير بالذكر أن هيرودس أمر بتدمير قمران، فلماذا يفعل ذلك إذا كانت علاقته طبيعية بالأسينيين؟ ومن أهم الفروق الأساسية بين القمرانيين والأسينيين هو الطبيعة المسالمة للأخيرين على العكس من سكان قمران، التي تبدو للباحث بمثابة حامية عسكرية، وقد عثر فيها المنقبون على آثار ورشة حدادة كبيرة، والتي تستعمل عادةً لصنع السلاح. من جانب آخر فقد فتحت الأبحاث الأخيرة باباً جديداً لتصحيح الصورة عن تكون المسيحية، واعتبار الحركة المسيحية البدائية (قبل الإنقلاب البولصي) شأنها شأن القمرانيين حركة يهودية إنتفضت ضد الحكم الإستعماري الروماني.

وعلى أية حال يتعقب المؤلفان أتيمولوجيا بعض الكلمات مثل أسيني، التي وردت حصراً في النصوص اليونانية واللاتينية للمؤلفين الكلاسيكيين. فيذكر فيلون أن أصلها esseos اليونانية التي تعني «قديس»، osseotes القديسين. ويعتقد كيزا فرمش G. Vermes بأن أصل الكلمة آرامي وهو «اسايا» أي المعالجين ويربط ذلك باسم الطائفة المصرية المقابلة Therapeuta المعالجين. غير أن المؤلفين يذكران بأن ذلك محض افتراض. فالقمرانيون لا يطلقون على أنفسهم هذه التسميات بل يستعملون منظومة أخرى منها: محقّقو أو مطبّقو التوراة «موسي ها- توراه» وبشكل آخر «موسيم». ويتحدث أيبفانيس، أحد مؤرخي الكنيسة الأوائل، عن طائفة يهودية مارقة تعيش قرب البحر الميت، أسماها ossenes. ويقتبس الكاتبان قول آيزنمان: «على العلم الحديث الإقرار بأن مصطلحات مثل أيبونيم، نوصريم، حاسيديم، صوديق إلخ هي تنويعات على نفس الموضوع. ومن الخطأ الفادح عدم تمييز إمكانية تبادل هذه المصطلحات مع بعض». ومن جانب آخر تدعو التسمية الأخرى التي أطلقها القمرانيون على أنفسهم إلى التفكير في موضوع آخر. فهم محافظو العهد «نوصري ها- بريت» وهذا يقودنا إلى أصل كلمة نصراني. ويقول الكاتبان أنه ليس لهذه الكلمة علاقة بمدينة الناصرة التي لم تكن قد وُجدت في ذلك العصر، بل ابتكر تقليد نشأة يسوع في الناصرة في فترة لاحقة.

الكنيسة الكاثوليكية ودورها:

يتميز الكتاب من بدايته حتى نهايته بتحميل الفاتيكان مسؤولية خاصة بصدد الحالة المزرية المتعلقة بالمخطوطات واحتكار حفنة من العلماء، القساوسة الذين يوجههم الفاتيكان، حق دراسة وترجمة ونشر (أو عدم نشر!) مخطوطات قمران. ويستنجد المؤلفان بحالة نشر جميع مخطوطات نجع حمادي خلال سنوات ثلاث فقط، لإثبات تعمد اللجنة الدولية تأخير نشر العديد من وثائق البحر الميت على مدار أكثر من أربعين عاماً انقضت منذ إكتشافها، خاصة تلك التي يمكن أن

تتسبب في «إحراج» الكنيسة أو في «تقويض» أسسها. من ناحية أخرى يبرز الكاتبان موقف الحكومة الإسرائيلية غير المكترث، برغبتها في عدم إستشارة الفاتيكان وتعقيد العلاقة معه (وقد تبادل الكرسي الرسولي وإسرائيل السفراء مؤخرا)، ولا يعير الكاتبان إهتماماً كبيراً بالإشكالية القانونية التي نجمت عن إستحواذ إسرائيل على المخطوطات التي كانت بحوزة الحكومة الأردنية قبل حرب عام 1967 في القدس الشرقية.

علاوة على ذلك يتجاوز المؤلفان الموضوع للخوض في تحليل شخصية بولص الرسول، ويفردان فصلاً خاصاً معنوناً: «ماذا كان القديس بولص، عميلاً للرومان أم مخبراً؟». وعلى الرغم من أهمية الفصل بين الموضوعية العلمية والأمانة التاريخية من جهة وبين العقائد الدينية من جهة أخرى، فإن إستفزاز مشاعر المؤمنين (مسلمين أو مسيحيين أو يهود أو أتباع أي دين آخر) هو أمر لا يخدم العلم والموضوعية ولا يخدم قضية التسامح التي طالما رددها الغربيون تحت مصطلح Tolerance في مقابل التعصب الديني والأصولية. إن احترام الرأي الآخر والتسامح الديني أمر يجب أن يسري دون إحتكار الحقيقة أو إحتكار «الإله» من قبل أي شخص كان!

ومع كل هذا نعتقد بأن الكتاب، على الرغم من تعصب مؤلفيه وعدم إتفاقنا مع بعض الإستنتاجات الواردة فيه، عمل قيّم يستحق الإهتمام، إذ يسلّط الضوء على سبل حل العديد من الإشكالات التي لا تزال قائمة منذ ما يقرب من ألفي عام، ويوضح، في أسلوب صحفي، القصة المثيرة لمخطوطات البحر الميت.

---

* المؤلف: كاتب عراقي يعيش في بودابست/ هنغاريا.